عقاقير الجمال

عند قدماء المصريين

للدكتور حسن كمال

١ — ﴿تمهيد﴾ : عقاقير الجمال هي عقاقير متباينة تستحضر فنيًّا قصد النظافة وتحسين البشرة واخفاء العاهات واحداث الجمال . استعملت هذه العقاقير بشكل بسيط منذ أقدم العصور سواء في ذلك الرجال والنساء . والى الشرق يرجع ابتكار هذه العقاقير . وتعدّ مصر مهراسها . ففي زمن الاسرة الاولى (٣٤٠٠ ق . م .) اعتاد المصريون ان يدفنوا مع موتاهم ادوات الجمال ووسائل النعيم كالأواني العطرية المختلفة الاشكال المصنوعة من المرمر وغيره والمرايا وأقلام الكحل (المراود) . ولما كشف قبر (توت عنخ امون) وجدت فيه أوانٍ متباينة احتفظ بعضها بعطريته حتى ساعة فتحه

وما اكثر ما وجد على الآثار وفي المقابر المصرية من دلائل تثبت شدة عناية أجدادنا بهذه العقاقير . ها هو ذا الشاهد الجرانيتي المنصوب بين ذراعي أبي الهول في عهد تحوتمس الرابع (١٦٠٠ ق . م .) وقد رُسم عليه ذلك الملك يقدم البخور والعطور لأبي الهول . وكانت صناعة هذه العقاقير محصورة في الكهنة . اما جواهرها الفعالة فكانت طبعاً محدودة بادىء ذي بدء . وهي إما مصرية مثل الزعتر والمرزنجوش origanum وإما مستوردة من الخارج مثل المر واللبان والكندر (frankincense) والناردين (spikenard)

والوسيط الذي خلطت به هذه العطور كان زيت السمسم غالباً وزيت اللوز وزيت الزيتون أحياناً

والى قدماء المصريين يرجع فضل ابتكار الحمام المنزلي الذي حسّنه من بعدهم الاغريق والرومان . ولا يبعد ان هذا الابتكار جاء وسيلة لتلطيف حرارة الجو . وكان يعقب هذا الحمام تدليك بالزيت والمراهم للمحافظة على نعومة الجلد وليونته ولإنعاشه . واهتمت السيدة المصرية القديمة بعقاقير الجمال . فبلغ اهتمامها ذروته في عهد الملكة كليوبترا . وركّز الجمال وقتئذٍ في العيون . فصبغ الجفن السفلي بالاخضر واكتحلت الأهداب والحواجب بالاسود واستعملت الامشاط والمرايا وخضبت الايدي والأقدام بالحناء

وأخذ اليهود من المصريين هذه العقاقير فورد ذكرها في كتبهم المقدسة . واستدح القرآن العيون الجميلة (وهي المكحلة عادة) في آية « وحورٌ عين كأمثال اللؤلؤ المكنون»

وكان الرومان اولاً قليلي الاهتمام بعقاقير الجمال . فلما نزحوا الى جنوب ايطاليا المحتلة بالاغريق وقتئذٍ عرفوا تلك العقاقير واهتموا بها . ثم ذاعت شهرة عقاقير الجمال في عهد (نيرون) (٥٤ ب.م) حتى استعملها هو وزوجته Poppæa عياناً . وبيض الرومان أوجههم بالطباشير وابيض الرصاص واكتحلوا بالكحل المصري وخضبوا الشعاه والوجنات بالاحمر المعروف بالفوقس Fucus وازالوا شعورهم بالدلوك او الجوشي وهو المعروف باسم (psilotrum) كما عالجوا جلودهم بالدقيق المخلوط بالزبد . ونظفوا اسنانهم بحجر الخفاف (puroice stone) فجعلوها بيضاء ناصعة وخففت السيدات ألوان شعورهنّ بما يرين من بلاد الجول (فرنسا Gaul) وحضروا العطور في شكل مزاهم (ladysmata) وسوائل (stymmata) ومساحيق (diapsamata)

كانت الحروب الصليبية عاملاً كبيراً في نشر عقاقير الجمال في اوروبا . وفي عهد الملكة اليصابات (Queen Elizabeth) أضحت على هذه العقاقير من مستلزمات أثاث حجرات النوم ومن أهم وصفات تجميل البشرة وقتئذٍ الحمام المعرّق الساخن الذي يعقبه تدليك الوجه بالنبيذ حتى يكتسب الوجه ملاسة وانارة ولوناً ورديًّا . ولم تكن هذه الوصفة بالرخيصة وقتئذٍ . فقد روي عن الملكة ماري (Queen Mary) ملكة اسكتلاندة انها كانت تغتسل في النبيذ وانها طالبت حكومتها بعلاوة مالية لذلك . وعلى الرغم من فداحة هذه التكاليف فقد تمسكت السيدات المتقدمات في السن بها كما هو منتظر طبعاً في حين فتنت الشابات بالاغتسال في اللبن ثم تفننت السيدات : فزينّ وجوههنّ بالخال . وفي عهد ملك الانكليز (Charles II) أصبحت حمامات اللبن من ضرورات التجمل . ثم ابتدعت السيدات طريقة ذرّ المساحيق البيض على شعورهنّ . وفي القرن السابع عشر بلغت عادة التجمل حدًّا بعيداً ببلاد الانكليز حتى اضطرّ البرلمان الانكليزي عام ١٨٧٩ ان يسنّ قانون العطور (Act of Perfumery) الذي نصّ على ما يأتي : —

«كل امرأة من أي سن كانت أو مرتبة (rank) أو مهنة أو درجة (degree) عذراء كانت أو متزوجة أو أرملة اذا أرغمت أو خدعت أو غشت رعايا جلالة الملك قصد اتمام زواج باستعمال العطور أو الالوان او المحاليل المجملة او الاسنان الصناعية او الشعور العارية أو مقومات الظهر المدوج أو موسعات ملابس السيدات السفلى (hoops) أو لبس أحذية عالية [illegible] ([illegible]) تعاقب عقاب السحرة وسيتم

الخلق — وكل زواج يحصل نتيجة لذلك يعتبر لاغياً »

وبالرغم من كل هذا فقد مضت السيدات في طريقهن الى الامام في بلاد الانكليز وايطاليا وفرنسا وغيرها . فغزت عقاقير الجمال السراي الملكية في عهد لويس الثالث عشر وأصبحت اسبانيا من أشهر بلدان العالم الموردة لزيد القانلا والكاكاو ومعجون الجوز . وأتى نابليون القائد العظيم وزوجته جوزفين (Josephine) فكانا حريصين على هذه العقاقير . وفضلت زوجته مستحضرات جزر المرتنيك Mertinique . ومنذ ذلك الوقت صنع الفرنسيون عقاقير الجمال على أساس علمي فانتشرت صناعتها في كل بلاد العالم الراقية وأصبحت تدر الربح الوفير وتأتي بالفائدة المرغوبة

٢ — ﴿ الكحل ﴾ للكحل منزلة كبيرة في بلاد الشرق حيث نسبت اليه صفات متباينة كحدة الابصار ودفع الحسد وابعاد المرض وعلاج العلل . وكان كل ذلك منتشراً في القطر المصري لكثرة أرماده وأتربته وشدة حرارته . وقد عثر على عدة علب فرعونية للكحل مكتوب على احداها « للوقاية من الاهداب والأجفان » . وعلى اخرى « مفيد للبصر » . وعلى ثالثة « لمنع النزف » وعلى رابعة « أجل دهان للعين » . وعلى خامسة « ميل للدموع »

وصنع القوم كحلاً يناسب السن ويتفق وفصول السنة . وكثيراً ما عثر بالمقابر المصرية على أربعة علب للكحل تحوي عقاقير مختلفة مكتوب على احداها « للاستعمال اليومي » وعلى الثانية « لفتح العينين » وعلى الثالثة « لنظافة العينين » وعلى الرابعة « لازالة افراز العينين »

والكحل الفرعوني نوعان . احدهما أخضر وهو الملخيت (Malachite) أي كربونات النحاس واسمه بالمصرية القديمة « وَزّ » . وثانيهما أسود واسمه بالمصرية القديمة « مسدم » وبالقبطية (Stem) وباللاتينية (Stibium) وصفه لوكاس بأنه العلابي أو (galena) أي كبريتور الرصاص الأسود (lead sulphide) .

وكان المصريون يضعون الكحل الأخضر على الجفن السفلي للعين . والأسود على حافتي العينين حتى تظهر أكبر تين براقتين

والملخيت أقدم عهداً من العلابي . وقد عثر بالمقابر الفرعونية على المادتين في شكل كتل صغيرة أوسبخات على ألواح اردوازية أو معجون في أوان خزفية . واستعمال الملخيت رجع الى ما قبل حكم الأسرات (قبل ٣٤٠٠ ق . م .) . وبقي مستعملاً حتى زمن الاسرة التاسعة عشرة (١٣٠٠ ق . م) أما العلابي فلم يعثر عليه في العهد السابق لحكم الأسر إلا أن استعماله دام حتى العهد القبطي

ويلاحظ على كتل الكحل الأثرية أتخاذها شكل الاناء الحاوي لها مما يدل على انها

كانت رطبة ثم جفت . ولم نستوثق من نوع المادة التي مزج بها الكحل وكل ما يقال إنها ليست دهنية وانها غالباً مائية أو مزيجاً من الماء والصمغ

ودلت أغلب التحليلات الكيميائية على أن ٥ر٦٥٪ من الكحل المصري من نوع العلاي أو كبريتور الرصاص (galena) والباقي وهو ٥ر٣٤٪ كربونات الرصاص (lead carbonate) واكسيد النحاس الاسود (black oxide of copper) واكسيد الحديد الرمادي (ochre) واكسيد الحديد المغنطيسي (magnetic oxide of iron) والملخيت (malachite) وتبر النحاس (Ore of Copper) الاخضر الضارب الى الزرقة المعروف باسم خرسقولا (Chrysocolla) .

ولم يعثر على كحل يحوي الانتيمون (antimony) إلا في حالة واحدة . وعلى ذلك فالرأي القائل ان الكحل المصري ان لم يكن (ملخيت) أو (علاي) فهو أثمد (أي ملح الانتيمون) لا يزال يحتاج الى اثبات . ولا يبعد أن يكون أساس هذا الرأي هو استعمال الاثمد في الكحل الروماني حيث أطلق عليه بلينيوس (Pliny) اسم (stimmi) أو (stibi)

أما الكحل الحديث فيصنع من هباب القرطم المحروق (Carthamus tinctorius) وهذا يوضع على الاهداب بواسطة المرود . وأحدث أنواع الكحل يصنع من هباب القلفونية (oil of terpentine) الذي يتصاعد دخاناً كثيفاً عند احتراقه . فيجمع هذا الهباب ويستعمل كمحروق أو يصنع على هيئة أقلام رصاص تبرى وتحرر على أهداب الجفون . ويرجع استعمال الكحل ذات الزواد الى عهد الاسرة الحادية عشرة (القرن العشرين قبل الميلاد)

ويوجد الملخيت بسيناء وصحراء العرب . أما العلاي أو الجالينا فيوجد بقرب اسوان وعلى شاطىء البحر الاحمر . ودلتنا الآثار على ان المصريين استحضروا الكحل من آسيا في عهد الاسرة الثانية عشرة (القرن الخامس عشر ق . م) ولا نزال نجهل نوع الكحل المستحضر من الصومال المشهور قديماً برائحته العطري (resins) . وقد كانت الصومال محطة توزيع منتجات البلاد المجاورة . وفي عهد الامبراطورية الرومانية كانت صادرات الهند ترسل الى شاطىء افريقية الشرقي ومنه بالسفن الى ايطاليا

٣ — شعر الرأس جاء بقرطاس ايبرس وصفات لمنع سقوط شعر الرأس للنساء . أما الرجال فكانوا يزيلون شعور الفخذ والشوارب عادةً وشعور الرأس أحياناً . وعطر القوم رؤوسهم بعد ازالة شعرها . ولم يثبت للآن استعمال أجدادنا للمقاقير المزيلة للشعر ولن كان لبعض الأثريين رجحون معرفتهم لها

٤ — ﴿ ازالة تجاعيد الوجه ﴾ تجاعيد الوجه من أعراض التقدم في السن . لذلك اهتم الانسان منذ أقدم العصور بمنع حصولها ما أمكن . وقام المصريون الأقدمون بنصيبهم في هذه الناحية فأوردوا وصفات ذلك في قراطيسهم الطبية . فذكروا في قرطاس ايبرس (١٥٠٠ ق.م) دهاناً مكوناً من بخور وشحم طازج وفاكهة السَّرْو (Cyperus berries) أجزاء متساوية تسحق وتمزج معاً وتخلط باللبن وتوضع على الوجه ستة أيام متتالية

وجاءت في قرطاس (ادوين سميث) الطبي (١٥٠٠ ق.م.) طريقة أخرى مطولة لعلاج هذه الحالة تحت عنوان « ارجاع الشيخ الى صباه » . والمراد بالشيخ هنا محياه وازالة تجاعيده واكتسابه نضارة وشباباً . ولا يبعد ان تكون هذه الوصفة حاوية المادة كالمعروفة باسم (حسن يوسف) التي تحدث انتفاخاً في الانسجة الخلوية أسفل الجلد فتخفي تجاعيده مدة معينة . وفيما يلي نص هذه الوصفة : —

نبات يقال له حمايت مجهول المدلول يغلى مراراً خلال أيام بطريقة مخصوصة ثم يدهن الوجه بالعجين الناتج من هذا الاغلاء

٥ — ﴿ تعطير رائحة الفم ﴾ اهتم المصريون برائحة الفم فوصفوا له الوصفات الكثيرة كاللبان (الكندر) والمر (Myrrh) وصنعوا من ذلك حبوباً لتعطير الفم محلاة بالشهد . والمعروف طبياً ان المر مفيد في علاج اللثة والتهاب الفم . والى قدماء المصريين يرجع الفضل في ابتكار هذا الدواء للحالة المذكورة

٦ — ﴿ التدليك ﴾ (Massage) استعمل المصريون الزيوت والشحوم للتدليك . والتدليك علاج ناجع لاستبقاء جمال الجلد ونعومته وصحته وتغذيته ومنع تجعده وذلك بالمحافظة على دورته الدموية . والتدليك دليل قاطع على بعد نظر قدماء المصريين في الجمال وسحره . جاء عنهم انهم استعملوا للتدليك الشحوم الحيوانية وزيت الخروع وزيت اللوز وزيت الكتان وزيت السمسم وزيت القرطم . كما ورد ذكر التدليك في القراطيس الطبية كقرطاس هيرست (١٥٠٠ ق . م .) . وجاء في رواية مصرية قديمة ايام الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) بطلها امير مصري قضى معظم حياته بفلسطين ثم عاد الى مصر لزيارة الملكة قريبته . وكان هذا الامير يدعى (سنوحى) . فلما عاد الى وطنه اشتد فرحه وما كادت قدماه تطآن ارض مصر حتى دلك جسمه بالزيت المصري الجميل بدلاً من زيت فلسطين . ولما تشرف بمقابلة العائلة المالكة نودي « احضروا زيت المرباي » فأحضر الزيت . ثم دلك جسم (سنوحي) حتى أصبح نضراً عطراً يليق بالمثول بين يدي فرعون مصر وزوجته . وحدثت بعد ذلك حوادث كثيرة ليس هذا مقام ذكرها تستهجن كل ما هو اجنبي وتقابله

بالاستغراب . فالملكة الشامية التي اكتسبها (صنوحي) بحكم اقامته هناك كانت مثاراً لضحك الامراء المصريين وعلى الاخص أطفال جلالة فرعون مصر . وهذا ان دل على شيء فعلى تعلقهم بلغتهم وعاداتهم واحترامهم لها وتقديرهم اياه

٧ — ﴿ الوان الوجه ﴾ يرجح جداً ان المصريات لوّن وجوههن بالاحمر في العهد الفرعوني . والاّ فما معنى وجود هذه الالوان مع ادوات سحقها بالمقابر . والمادة المستعملة لذلك هي أكسيد الحديد الاحمر (red ochre) او (haematite) .

ووردت بقرطاس (تورين) صورة لحسناء مصرية تمثلها تضع الاحمر على شفتيها اوضح تمثيل كما توضح سرورها بذلك ومراقبتها للعملية في مرآة يدوية قابضة عليها بيدها اليسرى

واعتاد المصريون منذ أقدم العصور تخضيب أيديهم وأرجلهم بالحناء وهو نبات اسمه (Lawsonia inermis) عثر على أغصانه بين الآثار المصرية : قال بلينيوس ان القطر المصري كان يصدّر أجود أنواع الحناء . ويرى بعض الأثريين ان الحناء ليس مصرياً بل أجنبياً استورد الى مصر حوالي (١٤٠٠ ق . م) ومع ذلك فان هذا النبات ورد ذكره على تمثال من عهد الملكة القديمة (القرن الثلاثين ق . م) أي قبل القرن الرابع عشر بمدة طويلة

٨ — ﴿ العطور ﴾ استعملت العطور في العصر الفرعوني والاغريقي والروماني كمستحضرات زيتية أو دهنية . وصيف مصر المشهور بحرارته وجفافه خير محبّذ لاستعمال هذه المستحضرات . ولا تزال الزيوت العطرية منتشرة في النوبة والسودان وبعض جهات افريقيا . وكانت الزيوت من أنواع متعددة واستعملت لغرض اذابة العطور وحفظها من الزناخة

والعطور الحديثة تستخرج من الزهور والفواكه والاخشاب والاوراق والحبوب كمحلولات كحولية . ولجهل قدماء المصريين بخواص الكحول وطرق تقطيره وقابليته لاذابة العطور عمدوا الى اذابة هذه الاخيرة في الزيوت والدهون . نعم ان تيوفراستوس (Theophrastus) (٤٠٠ ق. م.) وبلينيوس (Pliny) (١٠٠ ب. م.) ذكرا عملية التقطير بأسلوب مبدئي دون أن تشرح شرحاً وافياً . فلما أتى القرن الرابع بعد الميلاد أتى ارسطوطاليس (Aristotle) وفصلها تفصيلاً . وعلى ذلك فقد استمر أجدادنا مدة أربعة آلاف سنة قبل الميلاد يستخرجون عطورهم من الأزهار وغيرها بوضعها في الزيوت أو الدهون مدة كافية . وكانت نفس الطريقة مستعملة في عهد تيوفراستوس (Theophrastus) حيث استعمل لهذا الغرض زيت الطلح أو الزقوم (Balanites aegyptiaca) غالباً وزيت الزيتون وزيت اللوز أحياناً . وذكر بلينيوس (١٠٠ ق. م) ان الرومان استخرجوا عطورهم

بالطريقة عينها وزادوا عليها بأن ضغطوا على أوراق النبات العطرية أو أغلوها في الزيت . ولا يبعد أن يكون الرومان قد أخذوا هذه الطريقة أيضاً من المصريين

وشرح پلينيوس (١٠٠ ب . م) وتيوفراستوس (٣٠٠ ق . م .) كثيراً من انواع العطور المصرية القديمة كاليسون والمرّ وجاء ان هذه العطور كانت تحفظ بالدكاكين مدداً تزيد على ثماني سنوات مع احتفاظها بصفاتها وخواصها . وقيل ايضاً أنها قد تكون في النهاية أفضل منها في البداية . قال پلينيوس ان القطر المصري كان أشهر بلاد العالم في تحضير العطور . وان أشهر هذه العطور هو المستحضر بمدينة (منديس) (Mendes) بالدلتا (بالدقهلية قرب السنبلاوين) حتى أطلق على عطرها اسم (زيت منديس) كما تنسب بعض العطور حديثاً الى المدينة التي ابتكرتها مثل (ماء كولونيا) نسبة الى مدينة (كولونيا) بالمانيا . ووصفت زيت منديس) هذا بأنه معقد التركيب يحوي زيت البلوط (balanus) وراتنجاً ومرًّا وزيت اللوز وزيت الزيتون وحب الهال (الحبهان) (cardamum) والبلسم (balsamum) والقناواشق (galbanum) والتربنتينة (terpentine resin). وقال پلينيوس ان المصريين استخرجوا المر من نبات الهليلج (Myrobalanus) الذي ينبت بصحراء طيبة واثيوبيا ونباتات أخرى لا تزال تجهل مدلول اسمائها للآن

ولم يثبت حتى الآن استعمال الطيوب او العطور الحيوانية كالمسك من الظبي (Musk) وعنبر خام (Ambergis) من القيطس والزباد (civet) من القط

وعثر على مراهم بقبور الاسرة الاولى (٣٤٠٠ ق . م .) ذات رائحة شديدة غير عطرية لا يبعد انها كانت عطرية ثم تحللت وفسدت . ولم يحلل من هذه المواد الكيميائية الا القليل وكل ما يمكن قوله الآن انه عثر ضمن هذه المراهم على الحامض الاستياريك (Stearic acid) مما يدل على أصل حيواني . وعثر بقبر اثوت عنخ آمون على أربع مواد صلبة يرجح ان احداها تحوي بلسماً . ولا يبعد ان تكون هذه المواد راتنجية أو اصماغاً راتنجية أضيفت الى الدهن لا لتعطيره بل لتثبيت عطره (perfume fixer)

قال روبنه (Reuvet) انه حلل ثمانية عطور فرعونية فوجدها تحوي إسطرك (Storax) وبخوراً (incense) وراتنج تربنتينة (Terpentine Resin) وقرأ (bitumen) وحناء ومواد نباتية عطرية ممزوجة بشيء الملح وصبغة الكاشيا (Cassia) والتمر هندي (Tamarind) . ولا تزال نتائج هذه التحاليل موضوع نقاش بين الكيميائيين الاثريين

وسمى المصريون عطورهم باسم (عَسْر) وهو أصل لفظ (عصير) بمعنى